الخطاب المتداخل في خِطب الزهراء (عليها السلام) وأثرُه في إعادة توجيه الخطاب الإسلامي الخطبة الرسالية (الفدكية) أنموذجا

The overlapping discourse in the sermons of al-Zahra (peace be upon her) And its impact on reorienting Islamic discourse the missionary sermon (Fadakah) (as a model)

م. د. عاد كامل صابر العبيدي

M. Dr. Add Kamel Saber Al-Obaidi

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية

Karbala University/ College of Islamic Sciences

م. د. صباح حسن عبيد التميمي

Dr. Sabah Hassan Obaid Al-Tamimi

مديرية تربية كربلاء

Karbala Education Directorate

الكلمات المفتاحية: التناص، تداخل النصوص، الاقتباس.

Key Words: Intertextuality، overlapping texts، quotati

الملخص:

اشتغلت هذه الدراسة على تقديم قراءة جديدة في خطاب كبير، خطاب مكتنز بخطابات مقدسة، تؤسس لخطاب غايته استمرار رسالة النبي محمد(صلى الله عليه واله وسلم)، وإعادة توجيه خطاب الإسلام الذي انحرف به الفكر المغاير للآخر المُنقلب، وقد تمثّل بخطبة الزهراء – عليها السلام – المعروفة – مغالطةً – بـ(الفدكية)، وترى هذه الدراسة أن الزهراء – سلام الله عليها – هي الامتداد الطبيعي للرسول الكريم، ولرسالته السماوية السمحاء، وقد نهضت بأعباء ذلك بعد رحيله الى الرفيق الأعلى على سرعة اللحاق به، إلا أنّها – على الرغم من ذلك – أسست خطاباً رساليا تمثّل بخطبتها هذه؛ لذلك تقترح الدراسة تسميتها بـ(الرسالية).

وقد قاربت الدراسة خطاب الزهراء – عليها السلام – مقاربة تناصية في ضوء مقولة تبنتها تتلخص بـ(تداخل الخطابات) التي تنهض على تشابك خطابين أُنتجا في سياقين مختلفين أحدهما غائب ويُستحضر في سياق جديد غير سياقه، والآخر حاضر يُسهم في إعادة توجيه السياق المُستحضّر.

إن السبب المباشر الذي حرّك مفاصل هذه الدراسة يكمن في إكتناز المتن المُنتخَب فكريا وعقائديا، بل هو يمثّل إنطلاقة رسالية جاءت لإتمام مسيرة الرسالة المحمدية، وهي ثورة كلامية أرعبت الفريق المنقلب.

Abstract

This study has been used to introduce a new reading in a great speech، a speech encircled by sacred speeches، and to establish a discourse aimed at completing the message of the Prophet، and reorienting the discourse of Islam، which deviated from the thought of the other،)، And this study believe that the Zahra - peace be upon them - is the natural extension of the Holy Prophet، and his message heavenly and happy، and raised the burden of this after his departure to the Comrade the Supreme to speed to catch up with him، but it - nevertheless - I wrote a letter to represent this letter; Therefore، the study suggests that it is called " The missionary.

The study approached the discourse of Zahra - peace be upon her - a consistent approach in the light of the argument adopted is the (overlapping letters)، which is the convergence of two speeches produced in two different contexts، one absent and evoked in a new context non-context، and the other contributes to reorienting the context produced.

The direct reason behind this study is the accumulation of the intellectually and intellectually elected Met، but it represents a missionary step that came to complete the path of the Muhammadiyah message، a speech revolution that terrified the overturned team .

المقدمة:

لا تخرج هذه الدراسة عن وصفها محاولة صغيرة لتقديم قراءة جديدة في خطاب كبير، خطاب مكتنز بخطابات مقدسة، تؤسس لخطاب غايته استمرار وديمومة رسالة النبي، وإعادة توجيه خطاب الاسلام الذي انحرف به الفكر المغاير للآخر المنقلب، وقد تمثّل بخطبتها المعروفة – مغالطةً – بـ(الفدكية)، وترى هذه الدراسة أن الزهراء – سلام الله عليها – هي الامتداد الطبيعي للرسول الكريم، ولرسالته السماوية السمحاء، وقد نهضت بأعباء

ذلك بعد رحيله الى الرفيق الأعلى على سرعة اللحاق به، إلا أنّها – على الرغم من ذلك – أسست خطاباً رساليا تمثّل بخطبتها هذه؛ لذلك تقترح الدراسة تسميتها بـ(الرسالية).

وقد قاربت الدراسة خطاب الزهراء – عليها السلام – مقاربة تناصية في ضوء مقولة تبنتها تتلخص بـ(تداخل الخطابات) التي تنهض على تشابك خطابين أُنتجا في سياقين مختلفين أحدهما غائب ويُستحضر في سياق جديد غير سياقه، والآخر حاضر يُسهم في إعادة توجيه السياق المُستحضّر.

إن السبب المباشر الذي حرّك مفاصل هذه الدراسة يكمن في اكتناز المتن المُنتخَب فكريا وعقائديا، بل هو يمثّل إنطلاقة رسالية جاءت لإتمام مسيرة الرسالة المحمدية، وهي ثورة كلامية أرعبت الفريق المنقلب.

وقد قُسمت الدراسة على مبحثين اختصّ الأول بالجانب التنظيري لها، فنظّر لثيمتها المركزية التي تمثّلت بتداخل الخطاب بوصفه مصطلحا مقترحا يستهدف تعديل مقولة (التناص) بصورة تتجاوز تشابك النصوص إلى تشابك الخطابات، وكذلك الكشف عن المقولة التناصية بصورتها النقدية بوصفها آلية قراءة لا خصيصة تكمن في المتن.

وجاء المبحث الآخر ليكون إجراءً للتنظير، فيشتغل على المتن المدروس دراسة تنظر إليه بصفته خطابا متداخلاً يؤدي وظيفة مزدوجة، يكتسب قدسيته من الخطاب القرآني الكريم، إلى جانب عن شرعيته العقائدية التي هي محاولة لإرجاع الخطاب الاسلامي الصحيح إلى خطّه.

المبحث الأول

البعد التنظيري

في مصطلح الدراسة ومنهجها.

أولا: الخطاب المتداخل– مصطلحه ومفهومه.

تحاول هذه الدراسة الانطلاق من فرضية سابقة سعت الى التفريق بين النص، والخطاب، والنهوض على مقولة (تداخل الخطابات) بوصفها متواليات منتجة في سياقات سياسية ودينية واجتماعية معينة ذات مرجعيات ثقافية تخاطب فئة معينة من الجمهور وتهدف إلى إنتاج خطاب فكري ذا أهداف محددة.

ويتوزع مصطلح (الخطاب المتداخل) مفهومان الأول الخطاب، والآخر التداخل، ليتأسس في ضوء ذلك مصطلح واحد بهذا التركيب، وقبل الشروع بمنح هذا المقترح المصطلحي بعده المفهومي المُتبنى لا بد من الوقوف عند الشق الأول منه؛ لما يمثله من إشكالية مفهومية في الخطاب النقدي الحديث؛ اذ اختلف في حدّ الخطاب وطرحت من اجل ذلك طروحات كثيرة منها من رأى أن الخطاب هو ((شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب))[1].

ومنها ما رأت أنه يطلق – إجمالا – على أحد مفهومين يتفق في أحدهما مع ما ورد قديما عند العرب، أما في الآخر فيتسم بجدته في الدرس اللساني الحديث وهذان المفهومان هما:

الأول: انه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصدا معينا.

الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة، وهذا المفهوم هو الغالب في الدراسات اللغوية اللسانية الحديثة[2].

ومنها ما انطلق في تحديد مفهوم الخطاب عبر موازنته بالجملة والنص بوصفهما مصطلحين متداخلين معه، فخلُص إلى نتيجة مفادها الآتي:

((يُعدُّ خطاباً كلُّ ملفوظٍ / مكتوبٍ يُشكّل وحدةً تواصليةً قائمة الذات))[3]، ويُفاد من هذا الطرح أمور ثلاثة:[4]

أولها: تحييد الثنائية التقابلية: جملة / خطاب؛ إذ أصبح الخطاب شاملا للجملة.

ثانيا: إعتماد التواصلية معيارا للخطابية.

ثالثا: إقصاء معيار الحجم من تحديد الخطاب؛ إذ أصبح من الممكن أن يُعدّ خطاباً كل نص أو جملة أو مركب أو شبه جملة.

وفي ضوء ما تقدم ((يمكن عدّ الخطاب متوالية شمولية سياقية تتشكل من جملة، أو جمل، أو نص، أو نصوص، ترتبط فيما بينها برابط سياقي واحد ينشأ في ظل مقصدية المخاطب الذي يحاول إيصال رسالة لغوية تحمل صورا ذهنية دلالية سطحية وعميقة إلى مخاطب قريب وهو الذي يتجلى في السياق القريب من الخطاب او مخاطب بعيد ليس له تجل مباشر))[5].

على أن الذي يعنينا من كل ذلك أن الخطاب لا يمكن أن يأتي بريئا في ظل سياقه، وظروف إنتاجه؛ إذ يُنتج عبر تداخل خطابات قبلية لها تأثيرات أيدلوجية على مُنتِجه، ومُستَقْبِله في الآن نفسه؛ لأنّ الخطاب – في دراستنا هذه – وعاء سياسي وديني واجتماعي يتجاوز مساحة المكتوب ليفتح آفاق التلقي على سياقات أخرى يتمّ استدعاؤها عبر آلية (التداخل)، فيُنتَج في ظل ذلك (خطابٌ متداخل) يتشكّل من القبل (خطابات سابقة) والبعد (خطاب آني)، بعد ان يجمعها سياق واحد ليشكل خطابا واحدا يوحد بين هذه التعددية، فالخطاب في حقيقته((جملة من المنطوقات او التشكلات الأدائية التي تنظم في سلسلة معينة لتنتج– على نحو تاريخي– دلالة ما، وتحقق اثرا معينا))[6]

إن الطرح الذي نتبناه في هذه الدراسة يقوم على مُسلَّمة (تداخل الخطابات) التي تتجاوز مقولة (تداخل النصوص) والتي هي مصطلح سيميولوجي أشار اليه روبرت شولز بقوله: ((النصوص المتداخلة اصطلاح اخذ به السيميولوجيون مثل بارت وجنيه وكرستيفا ورفاتير وهو اصطلاح يحمل معانٍ وثيقة الخصوصية تختلف بين ناقد وآخر والمبدأ العام فيه هو إن النصوص تشير إلى نصوص أخرى مثلما إن الإشارات تشير إلى إشارات أخرى، وليس إلى الأشياء المعينة مباشرة...النص المتداخل هو نصٌّ يتسرب إلى داخل نص آخر؛ ليُجسد المدلولات سواء أوعى الكاتب بذلك أم لم يعِ))[7].

فنقطة المغايرة بين المصطلحين (تداخل النص وتداخل الخطاب) تكمن في المادة المُتداخلة: نص/ خطاب؛ إذ تفرّق هذه الدراسة بين النص بوصفه كيانا مكتوبا لا شموليا، محدود السياق والفكرة، وبين الخطاب بوصفه كيانا شموليا يشتمل على النص ويتعداه برؤاه الفكرية والأيدلوجية المطروحة فالخطاب ((مجموعة من

النصوص ذات العلاقات المشتركة))[8]؛ لذا نقول خطاب فلان السياسي، ولا نقول نص فلان السياسي؛ لأن الخطاب ثيمات متعددة والنص جزء من ذلك التعدد.

ويمكن للدراسة أن تتبنى مفهوما يُؤطّر مصطلح (الخطاب المتداخل) يتلخّص في أنّه: ((تعالق خطابات سابقة متعددة، مع خطاب لاحق في طور الولادة، بغية إنتاج حضور جديد من الغياب الماضي المتراكم الذي أعيد إنتاجه بعد دخوله في عملية إنتاجية ذهنية تدور تفاصيلها في أروقة عقلية المبدع الذي يرتكز في إنتاجها على الذاكرة طويلة الأمد المخزونة في ذهنه، فضلا عن وسائل تشكيله الإبداعية الأخرى التي تُتيح له تشكيل خطاب إبداعي مغاير يتركب من الماضي والحاضر))[9]

ثانيًا: منهج الدراسة– التناص بوصفه منهجا.

لم ينظر للتناص في معظم الدراسات الحديثة إلا بالنظرة الأحادية التي تراه حضورا نصيا لآخر في نص لذات، وهي نظرة تحجم طاقات هذه الآلية وتجعلها أسيرة لمسألة الحضور والغياب، في حين إن التناص يضمر حقيقة غابت عن أذهان كثير من الدارسين وهي حقيقة تشكله المنهجي، فالناقد الذي يقرأ النص المتناص مع نص آخر لا يأتيه خالي الوفاض من آليات تعينه على تفكيك النص وكشف اصوله وهي اليات تنبع من الطبيعة المنهجية لمصطلح التناص.

فمقولة التناص مثلما استقرت في النظرية النقدية عند كرستيفا تفترض ((إنَّ كلَّ نصّ عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات.وكلّ نصّ هو تشرّب وتحويل لنصوص أخرى))[10]، فالتّناص في نظرها((قانون جوهري،إذ هي نصوص تتمّ صناعتها عبر امتصاص وفي نفس الآن عبر هدم النّصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصيّا ويمكن التّعبير عن ذلك بأنّها ترابطات متناظرة ذات طابع خطابي))[11]، في حين إن التناص في ضوء متبنيات هذه الدراسة قراءة تدخل ضمن الحقل المنهجي فليس التناص في هذه الدراسة ((هو الفعل الذي يعيد بموجبه نص ما كتابة نص آخر))[12]، مثلما عرفه نتالي غروس، ولا هو ((تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة))[13] مثلما قرره محمد مفتاح فحسب، بل هو منهج قرائي يرتفع بوظيفة التناص من مجرد كونه خصيصة أسلوبية تكمن في النص إلى آلية منهجية تشتغل على النص لتكشف عن أصوله وتقرأ أنساقه وتحاوره محاورة موضوعية ممنهجة.

وتنهض هذه الدراسة على ثيمة رئيسة شكلت نسيجها التكويني تشكيلا يعتمد على مبدأ المغايرة في الطرح إذ تنظر إلى مقولة (التناص) بوصفه منهجا تحليليا، وآلية قرائية لمقاربة الخطابات المتداخلة، وهو طرح يستهدف تحطيم النظرة الأحادية للتناص القائمة على كونه كونا نصيا متداخلا ومتشربا في نصوص أخرى في الآن نفسه، فهو على وفق هذه النظرة ((ممارسة قرائية للنص تكشف عن خفاياه ومحتوياته العلامية الراجعة الى متن سابق))[14].

إن دراستنا هذه تتبنى فكرة تنظر إلى (التناص) ((نظرة ثنائية يتوزعها بعدان الأول يرى إن (التناص) تشكّل إبداعي يستوعب ويمتص كلَّ هذه التداخلات التي حصلت به ويتفاعل معها، والآخر ينظر إليه بوصفه منهجا قرائيا يمتلك الكفاية لممارسة قراءة واعية تسبر أغوار النص/ الخطاب، وتخترق كل خطوطه الأفقية والعمودية))[15]، فالمنهج التناصي في ضوء ذلك هو منهج يشتغل على الكشف عن تشكيل واقع التكوينات النصية المشكلة للخطاب المدروس عبر تقسيمها إلى أنماط مختلفة تحدد بالآليات التي اشتغل عليها مبدع الخطاب نفسه والتي سميت بقوانين التناص، وللقارئ في هذه الممارسة دور فاعل لما يقوم به من استرجاع ومقارنة وموازنة ورصد ومعاينة وتأويل؛ إذ يزيل ويمحو وينقب ويفتت، ويحفر خلف النص للعثور على نص فرعي غائب يمثل الأصل الحقيقي للنص الحاضر[16].

وتستند دراسات التناص إلى آليات/قوانين قراءة تنقسم على ثلاثة:

أولها: آلية الاجترار:

ويقصد به تكرار الخطاب الغائب (المُسْتَدعى)، من دون تغير أو تحوير، وهو قانون لا يطور ذلك الخطاب نصيّا، ولا يحاوره بل يكتفي بإعادته كما هو، أو إجراء تغيير طفيف بحيث لا يمس جوهره بسوء؛ لأسباب منها نظرة التقديس والمرجعيات الدينية والأسطورية[17]، لكنّه في الأنموذج المُشتَغَل عليه في هذه الدراسة يستهدف إضفاء خطاب إقناعي يؤثر في جمهور التلقي؛ لذلك يردُ كما أُنتِج في سياقه الذي وُلِدَ فيه حاملا كل أنساقه الدلالية.

ثانيها: آلية الامتصاص.

هذه الآلية هي مرحلة أعلى في قراءة الخطاب الغائب وهذا القانون الذي ينطلق أساسا من الاقرار بأهمية هذا الخطاب وقداسته، فيتعامل وإياه تعاملا حركيًا تحويليًا لا ينفي الأصل بل يسهم في استمراره جوهرا قابلا للتجديد، ومعنى هذا أن الامتصاص لا يجمد الخطاب الغائب ولا ينقده، انه يعيد صوغه فحسب على وفق متطلبات تاريخية لم يكن يعيشها في المرحلة التي كتب بها وبذلك يستمر الخطاب غائبا غير ممحور ويحيا بدل أن يموت[18].

آخرها: آلية التلميح:

ويقصد بها الإشارة إلى حدث أو اسم أو قصة تاريخية مشهورة، من دون أن يكون هناك شرح لتلك الإشارة داخل سياق الخطاب؛ إنما تترك للقارئ حرية استحضار هذا الاسم أو تلك القصة، من مرجعياته الثقافية والتاريخية، ويعد هذا من أهم أنواع الإيجاز؛ إذ يعمد فيه المنشئ استفزاز الخلفية الثقافية للقارئ، ولا تتم هذه الآلية إذا كان القارئ غير واع لها[19]، وبتعبير آخر إنّ هذه الآلية تشترط مشاركة المتلقي في سياق الخطاب؛ إذ يكون على وعي بذلك الخطاب، وبتفاصيله التاريخية.

ولابدّ من التنويه هنا إن إجراء دراستنا هذه يقتربُ من هذه الآليات، ويُفيد منها بالقدر الذي يتماشى مع خصوصية خطابه المُنتخب للقراءة؛ لذلك سيُعيد قراءة هذه الآليات بما يتناسب وذلك الخطاب.

المبحث الثاني

البعد الإجرائي

أنماط الخطاب المتداخل في الخطبة المُختارة

تشفُّ بنية الخطاب في الخطبة المُنتَخَبة عن تداخلات خطابية متعددة، أنتجت في سياقات وآليات مختلفة، يأتي الخطاب القرآني في مقدمتها، ولقد نتج عن ذلك خطابان متداخلان، يمكن تسمية أولها بـ(**الخطاب المتداخل التصريحي**): وهو الخطاب الذي يستدعي الخطاب الغائب مباشرة دون تغيير في ألفاظه، لكنه يعيد إنتاج الدلالة في سياقها الجديد، وهذا الخطاب يشتغل على نوعية معنى النص المستدعى وتذويب هذا المعنى في سياق خطبة الزهراء بطريقة أداء أسلوبية عالية وبلاغة تعبير، ولا يعني معنى الخطاب المتداخل أن الزهراء تأتي بالعبارات والآيات القرآنية كما هي دون إعادة توظيف هذا الخطاب في سياقه الجديد لأهداف حجاجية وبطريقة تخدم الخطاب المراد إنتاجه. والآخر(**الخطاب المتداخل التلميحي**): وهو خطاب يشير إشارة إلى الخطاب المتداخل معه، فلا يأتي به كاملا كما أُنتج في سياقه المستدعى منه فيغير ويضيف ويعدل بعض عباراته بطريقة لا تستنسخ ذلك الخطاب الغائب بقدر ما يفيد منه لإنتاج دلالته الجديدة في ضوء الخطاب الحاضر.

ولقد شكل هذان الخطابان بنية الخطاب المتداخل عند الزهراء (عليها السلام) الذي مثل بؤرة الاحتجاج في خطابها العام الهادف إلى قراءة الخطاب الإسلامي قراءة تعيد ترتيب أوراقه بعد أن انحرف عن مساره الصحيح جراء الفتنة الحاصلة بعد استشهاد الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه واله وسلم).

تنهض خطبة الزهراء على بناء هيكلي تشكل من (عتبة بداية)، ومتن رئسي، وعتبة نهاية (خاتمة) وقد سجل الخطاب المتداخل حضوره الفاعل في المساحة الخطابية التي تمثلها متن الخطبة بعد عتبة البداية التي شكلت بنية تحفيزية لاستثارة اهتمام المتلقين وتنبيههم لمنطقة البؤرة في الخطاب، وقد تداخل خطاب الزهراء تداخلا تصريحيا في هذه المنطقة مع خمس عشرة آية قرآنية صريحة تنوعت سياقاتها بحسب المقام ومجرى الحدث المسرود، وقد شكلت خطابا متداخلا تصريحيا حجاجيا، على أن نسبة هذا (الحجاج) الذي غايته أن يُقنِع، ويبني خطابا مضادا للآخر ترتفع وتنخفض بحسب محاور خطاب الزهراء، فقد بدأت بمحور التذكير والتنبيه، ثمّ انتقلت إلى محور الإرث والحجاج، وخُتِمَ الخطاب بمحور التهويل والتقريع الذي مثّل عتبة النهاية في خطابها.

فمن آيات المحور الأول – (التذكير والتنبيه) – قوله تعالى: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ))[20]، وقد ساقت الزهراء (عليها السلام) هذه الآية بعد قولها منبهة ((أيُّها النّاسُ! اعْلَمُوا أنّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَقُولُ عَوْداً وَبَدْءاً، وَلا أَقُولُ ما أَقُولُ غَلَطاً، وَلا أَفْعَلُ ما أَفْعَلُ شَطَطاً))[21] ومن ثمَّ نقلت الآية السابقة.

لقد ابتدأت الخطبة بهذا الخطاب التنبيهي (أيها الناس)، لتهيئ أذهان المتلقين إلى ما سيأتي من خطاب، وقد حركت أذهانهم بأمور هي قارة عندهم، فقالت (اعْلَمُوا أنّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، وقد اشتغلت (إنّ) هنا اشتغالا حجاجيا تذكيريا نبهت بوساطته القوم من غفلتهم وهي خارجة عن وظيفة الإخبار معدول بها إلى وظيفة التذكير والتنبيه وقد أشارت في البنية العميقة للخطاب إلى مسألة العصمة (وَلا أَقُولُ ما

أَقُولُ غَلَطاً، وَلا أَفْعَلُ ما أَفْعَلُ شَطَطاً)، وأسندت خطابها بالتداخل مع خطاب الآية القرآنية المذكورة التي هي خطاب موجه إلى العرب خاصة ((وإنما ذُكِر ذلك لأنه اقرب إلى الألفة، وابعد من المحك واللجاج، وأسرع إلى فهم الحجة، فهو من أنفسكم في اشرف نسبة منكم، ومن أنفسكم في القرب منكم، ومن أنفسكم بالاختصاص بكم))[22].

إن ما يحمله الخطاب القرآني في هذه الآية القرآنية من قرب منزلة الرسول منهم، ينسحب على الزهراء فبما أن محمدا (صلى الله عليه واله وسلم) هو من أنفس العرب والقريب منهم والمختص بهم فان الزهراء ابنته وهي أحق الناس به.

ويستمر خطاب الزهراء المتداخل ذو الوظيفة التنبيهية المتشابك السياقات، للوصول الى غاية تنبيهية تكون كالمدخل لبؤرة الخطاب المتداخل عندها فتقتبس قوله تعالى: ((كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ))[23]، في قولها وهي تذكر المخاطبين((فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِمُحَمَّدٍ صَلى الله عليه وآله بَعْدَ اللّتَيّا وَالَّتِي، وَبَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِبُهَمِ الرِّجالِ وَذُؤْبانِ الْعَرَبِ وَمَرَدَةِ أَهْلِ الْكِتابِ، {كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأها اللهُ}، أَوْنَجَمَ قَرْنٌ لِلشَّيْطانِ، وَفَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ، وِيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ))[24].

وفي هذا النص الحامل للدلالة التنبيهية تظهر أول إشارة إلى الإمام علي (عليه السلام)، ودوره في إسناد الرسول والرسالة، وهي إشارة مهمة جدا تؤسس لبؤرة الخطاب المركزية وهي إتمام الرسالة المحمدية الحقة، والكشف عن الحلقة الصحيحة التي يجب ان تأخذ مكانها المناسب في سلسلة الرسالة المحمدية، وهي في تعبيرها لم تذكر أي صفة من صفات الإمام علي، بل اكتفت بقولها(أخاه) في إشارة منها إلى رواية المؤاخاة التي تظهر الرسول محمد والإمام علي (سلام الله عليهما) صورتين في أنا واحدة.

ثم تكمل الزهراء الخطاب بعد سرد مواقف الإمام علي(عليه السلام) وتذكر القوم بها والإشارة في عمق الخطاب إلى أحقيته بالخلافة من غيره لتقول: ((وأَنْتُمْ فِي رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ))[25].

من الجلي الواضح في هذا النص أن الزهراء هنا تتحدث بلسان الجماعة الـ(نا) وهم آل البيت (عليهم السلام) وتذكر بالظلم الذي حاق بهم من القوم في حياة الرسول (ص) وهي أول إشارة تستعمل فيها ضمير الجماعة (نا) لتعبر عن بيت النبوة الذي هو الامتداد الطبيعي للرسالة المحمدية ويضمر النص كذلك في ضمائر الجمع (انتم) و (واو الجماعة) في(وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ، وتَتَوَكَّفُونَ ، تَنْكُصُونَ، تَفِرُّونَ)، مقصدية الزهراء إلى أن الخطاب لم يكن موجها إلى العامة ولا سيما في قولها:(تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ)، وهي تركز في خطابها على صفة النفاق التي تتساوق مع سياق النص القرآني السابق، على الرغم من أنها لم تصرح بخصلة النفاق عند الآخر المقصود بالخطاب إلا أنها نبهت إلى وجود هذه الخصلة قبل وفاة الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم).

ثمّ تصل بسرد خطابها إلى انتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى لتذكر بما حصل بعد رحيله فتقول: ((فَلَمَّا اخْتارَ اللهُ لِنَبِيِّهِ دارَ أنْبِيائِهِ وَمَأْوى أصْفِيائِهِ، ظَهَرَ فيكُمْ حَسيكَةُ النِّفاقِ وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ، وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينِ، وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلّينَ، وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلِين))[26].

ومن ثمّ تأتي بالنص القرآني الذي يسند بصورة جلية مآل الأمور بعد وفاة الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه واله وسلم)، إذ ينهض بناء هذا النص على مرتكزات أساسية شكلت نسيجه الثيمي تشكيلا ثيميا عميقا أسهمت في صناعته بلاغة عالية قامت على فنية الكناية في قولها(حَسيكَةُ النِّفاقِ) (وَسَمَلَ جِلْبابُ الدّينِ)، (وَنَطَقَ كاظِمُ الْغاوِينِ)، (وَنَبَغَ خامِلُ الأَقَلّينَ)، (وَهَدَرَ فَنيقُ الْمُبْطِلِين) وهي كنايات انبنت على ما يشين الفرد المسلم في دينه وحياته الاجتماعية فالسمل هو الخلق من الثياب[27]، والكاظم الذي يحبس غيظه ويتجرعه[28]، والخامل الخفي الساقط الذي لا نباهة له[29]، والفنيق الجمل الفحل[30].

وهي تشكيلات ثنائية تضمر دلالة عميقة عن الآخر الذي أدار الحركة المضادة لأهل البيت (عليهم السلام) وهو المقصود بإشارتها السابقة عن النفاق، وهي أول إشارة صريحة تأسست على الخطاب المتداخل إذ حددت الزهراء ماهية النفاق عبر الخطاب المنحرف الذي قاده المتأسلمون وقد صرحت الزهراء تصريحا مباشرا بذلك بوساطة اقتباس الآية القرآنية الكريمة((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ))[31] ومن ثم انتقلت الى نقطة جوهرية رئيسة في خطاب الزهراء المتداخل اذ قالت: ((فَوَسَمْتُمْ غَيْرَ اِبِلِكُمْ، وَأَوْرَدْتُمْ غَيْرَ شِرْبِكُمْ))[32]، وهي كناية مهمة عبرت بها الزهراء عن قضية استخلاف الرسول الكريم واغتصاب الخلافة من أصحابها آل البيت عليهم السلام.

ومن ثم تنتقل الزهراء إلى محور ثان غاية في الأهمية في خطابها وهو محور الحجاج والإرث إذ ((يعد النص الخطابي في خطبة الزهراء(ع) منظومة مفهومية متكاملة ذات وظيفة حجاجية في اغلبها وظيفة اقناعية وافهامية فكان إبداع تلك المنظومة شكلا في جمالية التعبير ومضمونا في اداء الوظيفة))[33] فتوطِئ لهذا المحور المهم بقولها: ((ثُمَّ لَمْ تَلْبَثُوا الاّ رَيْثَ أنْ تَسْكُنَ نَفْرَتُها، وَيَسْلَسَ قِيادُها ثُمَّ أَخَذْتُمْ تُورُونَ وَقْدَتَها، وَتُهَيّجُونَ جَمْرَتَها، وَتَسْتَجِيبُونَ لِهِتافِ الشَّيْطانِ الْغَوِيّ، وَاطْفاءِ أنْوارِ الدّينِ الْجَلِيّ، وَاهْمال سُنَنِ النَّبِيّ الصَّفِيّ، تُسِرُّونَ حَسْواً فِي ارْتِغاءٍ، وَتَمْشُونَ لأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي الْخَمَرِ وَالْضَّراءِ، وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلى مِثْلِ حَزِّ الْمُدى، وَوَخْزِ السِّنانِ فِي الحَشا، وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ ألاّ ارْثَ لَنا، أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلى تَجَلّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضّاحِيَةِ أنّي ابْنَتُهُ))[34].

في هذا النص تكمن الصياغة الحجاجية في أسلوب الاستفهام الذي تكرّر في نهايته في قولها: (وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ ألاّ ارْثَ لَنا، أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أفَلا تَعْلَمُونَ؟)، وهي هنا لا تنتظرُ جواباً، بل يخرج الاستفهام في نصها من وظيفة السؤال إلى وظيفة الاستنكار والتوبيخ والتقريع، على ان هدف الزهراء المركزي من إنتاج الخطاب هو تقويضٌ لبنيةٍ خطابيةٍ وبناءٌ لبنية خطابية بديلة تعمل على تعديل المسار المنحرف للخطاب الآخر المضاد للنهج الإسلامي، وقد أشارت الزهراء إلى ذلك عبر التشكيلات اللغوية التي تنم عن قراءة واعية لحال المسلمين بعد استشهاد الرسول فالزهراء ترى ان القضية المركزية عند الآخر هي

محاولة تقويض نهج النبي لبعث الجاهلية إذ تقول: ((وَتَسْتَجِيبُونَ لِهِتافِ الشَّيْطانِ الْغَوِيِّ، وَاطْفاءِ أَنْوارِ الدِّينِ الْجَلِيِّ، وَاهْمال سُنَنِ النَّبِيِّ الصَّفِيِّ)) وتؤشر السيدة الزهراء هنا منطقة مهمة من خطابها المتداخل بل يمكن عدها مركزية خطاب الزهراء والثيمة البؤرية فيه والهدف الأساس الذي من اجله أطلقت هذا الخطاب لتعديل الخطاب الإسلامي الذي انحرف عن مساره، فهي تهدف إلى كشف اللعبة التي يقودها الآخر المناوئ؛ فالمواقف الفكرية والعقائدية قد اختلفت بين الفريقين فالفريق الأول الذي تمثله الزهراء – سلام الله عليها – عن أهل البيت كان يبحث عن الإمتداد الحقيقي للرسالة المحمدية، ويهدف إلى إحياء سنن النبي – صلى الله عليه وآله –، وإرجاع الحقوق الربانية، وجعل الأمور في نصابها الصحيح، وأما الفريق الثاني الذي يمثله الآخر المخالف عقائديا، الذي حاول بخطابه المنحرف أن يُوهِم المسلمين عامة بأنه مع الحق عبر أساليب مغلوطة، وفهم مخالف لسيرة الرسول، ولكنّ الزهراء استطاعت بخطابها أن تفضح هؤلاء، في الحياة الدنيا، وبعد الممات عن طريق استشراف المستقبل، ورسم فضاء يوم القيامة حيث يقف هؤلاء بين يدي الله الذي تشير نصوصه الصريحة التي تداخلت معها الزهراء إلى زيف خطاب هذا الفريق، وانحراف متبنياته عن الخط الإسلامي الصحيح، وهي عكس متبنيات الزهراء التي هي وليدة شرعية للنهج الإسلامي الشامل الصحيح.

إن خطاب الزهراء – سلام الله عليها –، لم يكن خطاباً إلتماسياً – كما صورته بعض الروايات – غاياته مادية، بل إنّ خطابها المتداخل مع روح الإسلام الحقيقي المتمثّل بالخطاب القرآني أنتجته إشكالية فكرية ومذهبية، هو ثورة كلامية، وانتفاضة بلاغية، ضد الانحراف العَقَدي الذي انتهج نهجاً يصطدم مع القواعد الإسلامية التي أرسى دعائمها الرسول الكريم – صلى الله عليه وآله –، وهو في الحقيقة ثورة إصلاح كاملة للمنظومة الإسلامية التي حاول الآخر تغيير مسارها.

إن هذا الخطاب هو بمثابة بيان رسمي من الزهراء تُعلن فيه عن لسان أهل البيت – عليهم السلام – رفضها، واختلافها مع النهج المزيف الذي حرّف الحقائق، وارتكن إلى الشيطان في بناء منظومة عقائدية تُقصي أهل البيت – سلام الله عليهم –، وتبثّ التفرقة، وتؤجّج روح العداوة بين المسلمين.

ومن مضامين خطاب الزهراء المتداخل ما آلت إليه الأمور بعد وفاة الرسول محمد(ص) ومدى الظلم الذي لحق ببيت النبوة والرسالة المحمدية اذ عبرت عنه الزهراء بقولها: ((وَنَصْبِرُ مِنْكُمْ عَلى مِثْلِ حَزِّ الْمُدى، وَوَخْزِ السِّنانِ فِي الحَشا))، وهذا التشكيل التشبيهي يظهر مقدار معاناة الزهراء وكيف كانت تعاني من جراء ما وقع على نهج الرسول من لدن تلك الفئة المنحرفة التي حاولت تغيير مسار الدين، ومن ثم انتقلت الزهراء إلى مضمون آخر من مضامين خطابها المتداخل وهو (الإرث) الذي لم يكن هدفا مركزيا في خطاب الزهراء وإنما جاء عرضا، وهذا دليل ان السيدة الزهراء كانت حلقة وصل لإتمام الرسالة إذ لم تنتج هذا الخطاب للمطالبة بإرث مادي.

ويتجلى محور (الإرث) الحامل لوظيفة الحجاج بقول الزهراء – سلام الله عليها –: ((أَيُهَا الْمُسْلِمونَ أَأُغْلَبُ عَلى ارْثِيَهْ يَا ابْنَ أبي قُحافَةَ! أفي كِتابِ اللهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، وِلا أرِثَ أبي؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا! أَفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ؟ اذْ يَقُولُ: {وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ}، وَقالَ فيمَا اقتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَي بْنِ

زَكَرِيّا عليهما السلام اذْ قالَ {فهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} وَقَالَ: {وَأُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ} وَقالَ: {يُوصِكُمُ اللهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ} وقال: {انْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ والْأَقْرَبِينَ بِالْمعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}. وزَعَمْتُمْ أَلَا حِظوَةَ لِي، وَلا إِرْثَ مِنْ أبي ولارَحِمَ بَيْنَنَا! أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ أَبِي مِنْها ؟ أَمْ هَلْ تَقُولونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثَانِ، أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي؟))[35].

إنّ النهج التداخلي الذي سارت عليه الزهراء في خطابها مع القرآن، باستدعاء النصوص القرآنية كان نهجاً مبنياً على بلاغة عالية، ووعي ملفت بالخطاب القرآني، وما يحيط به من سياقات دلالية أنتِجت في دائرة تكوينه الكريمة ساعة إطلاق الخطاب من الذات الإلهية إلى الرسول الكريم، فكانت تنتقل من استدعاء خطاب قرآني بوساطة التداخل الصريح،إلى استدعاء خطاب قرآني آخر بوساطة التداخل التلميحي وتأخذ بتنقلها خصوصية الخطاب الغائب، وسياقه بنظر الاعتبار، فتأتي بالخطاب كما هو في موضع تساوق خطابها معه، وتقوم بتغيير ما يلائم خطابها بتغيير طفيف على الخطاب المُستدعى، أو بقلب أبعاده السياقية، بما يتناسب وسياق المقام في خطابها، كما فعلت في النص السابق؛ إذ استحضرت الآية القرآنية الكريمة: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)، فغيّرت جهة الخطاب من المؤنث – في الخطاب القرآني – إلى المخاطب المذكر في خطابها، وكان استدعاؤها لهذه الآية مرتكزا على مفردة (فريا) التي جاءت في سياق الآية للدلالة على الشيء القبيح؛ فـ ((الفري القبيح من الافتراء))[36]، إن تداخل خطابها مع خطاب الآية المُفضي إلى القبيح المُستغرب من الفعل جاء ليُعزّز دلالة القبح في ذهن المتلقي، وعلى الرغم من أن المخصوص بالخطاب في الخطابين الغائب المُستدعى (الآية) وهو (مريم)، والحاضر (الخطبة) وهو (الآخر) قد اختلفا في صفتي السلبية والايجابية، إلا أن الزهراء تعمدت التداخل مع هذه الآية لُتنبّه الآخر بمنزلته التي كانت له على حياة الرسول، وتقدير القوم لتلك المنزلة، فيصبح فعله بهذا التشابه مثل فعل مريم من وجهة نظر قومها.

ولكي يكون الحجاج مباشراً، والخطاب أكثر تأثيرا في المتلقي تقتبس الزهراء في محور الإرث خمس آيات قرآنية في هذا السياق اقتباسا مباشرا بوساطة التداخل التصريحي معها، وقد أشار صاحب (التبيان في تفسير القرآن) إلى اختلاف المفسرين في تفسير معظم آيات الإرث التي اقتبستها الزهراء، وقد رجّح الرأي القائل بأن الأنبياء يورّثون العلمَ والمال معاً، وخالفَ من قال بأنّهم يورّثون العلم فحسب[37]

ولا ريب في أن القصد المادي لم يكن مهيمنا على خطاب الزهراء في محور الإرث بل إن قضيتها الرسالية، وتعديل نهج الخطاب الإسلامي الذي انحرف بعد الرسول كان الهدف الذي وجّه خطابها، وخير دليل على ذلك أن الخطاب المتداخل على مساحة خطبتها كلّها في محور الإرث لم يأخذ إلا منطقة موجزة استدعت فيها الزهراء خمس آيات تصريحياً، وآية واحدة تلميحيا، في حين أن المحاور الأخرى هيمنت على الخطاب، وظهرت فيها خاصية التداخل مع الخطاب القرآني بنسبة أعلى تصل إلى الستين موضعا.

إن تقلّص مساحة محور الإرث تؤكد – بلا شك – أنّه كان مطلباً ثانويا عند الزهراء –، أو أنّه محفّزاً شرعياً لإنتاج خطاب البناء الذي استهدف الخطاب الإسلامي، ليُرمّم ما حصل فيه من انحراف، وتغيّر جرّاء الفكر المغاير للآخر المتسيّد في الساحة.

إن السبب الأساس الذي جعل خطبة الزهراء – سلام الله عليها – خطابا متداخلا يعود إلى نكوص الآخر، وخروجه عن الخطاب الرسالي الذي أسّسه الرسول الكريم – صلى الله عليه وآله – والاستعاضة عنه بخطاب منحرف، الأمر الذي جعلها تعود للخطاب المركزي في المنظومة الدينية الإسلامية، والنص المقدّس فيها (القرآن الكريم) لتجعل منه ركيزة حجاجية صريحة تكشف بها زيف الآخر، وقلبه للمفاهيم والأسس التي شيّد نظامها الرسول الكريم.

ولقد رأت باحثة أن احتجاج الزهراء بالبنى القرآنية في خطابها كشف عن علاقات موضوعية متعددة منها غاية القوم سلب الزهراء حقها وكشفت عن الدلالة العميقة من ذلك الحكم الذي خرجوا به عن النص القرآني متمثلا بقطع اي مورد اقتصادي لبنت الرسول ممكن ان يعينها على استرداد الحكم لأنه العامل الاقتصادي الذي يعد عصب إقامة الدول ومورد مهم لديمومتها[38].

لا يخفى أن هذه القراءة مجتزأة ذات نظرة ضيقة لم تتوسع في قراءة خطاب الزهراء بل عزت الغاية من الاحتجاج بالآيات وإنتاج الخطاب المتداخل إلى عامل لا يمكن ان يكون هدفا مركزيا من لدن الزهراء، وهو العامل الاقتصادي.

فضلا عن انه لم يكن مقصدا من مقاصد الطرف الآخر الذي انحرف بالخطاب الإسلامي بعد استشهاد الرسول (ص)، فهو لم يفعل ما فعله خوفا من تكدس الأموال عند الزهراء للنهوض بدولتها مثلما تصورت الباحثة، وإنما أراد ان يمنع الجزء عن الزهراء ليمتنع عنها الكل(حقّ استخلاف الرسول) بعد وفاته ومواصلة الرسالة المحمدية عبر ذرية الرسول(ص)، وأنجع دليل على ذلك في خطابها أن تداخلت في خطابها المطالب الأخروية ولم تأت قضية الإرث إلا وسيلة للوصول إلى غاية وهي الكشف عن خطاب منحرف لا بد من تعديل مساره.

تشكل خطاب الزهراء الحجاجي من بنية سطحية قائمة على تمظهرات لغوية لنص غائب ونص حاضر تشكل في سياق المقام والحدث وبنية عميقة مضمرة خلف السطح اللغوي والمظهر الخارجي وتمثل مركزية الخطاب المتداخل عندها اذ تضمر هذه البنية دلالات عميقة ابعد من ما تكشف عنه البنية السطحية دلالات تدور حول محاولة تقويض بنية خطاب منحرف وإعادة بناء خطاب بديل في ضوء الحجم والبراهين العقلية والنقلية.

وتستمر السيدة الزهراء بهذا الخطاب المتداخل الرسالي إلى ان تصل الى محور التهويل والوعيد فتقول: ((أَلا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ، وَالغَدْرَةِ التِي اسْتَشْعَرَتْها قُلُوبُكُمْ، وَلكِنَّها فَيْضَةُ النَّفْسِ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ، وَخَوَرُ الْقَنا، وَبَثَّةُ الصُّدُورِ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ. فَدُونَكُمُوها فَاحْتَقِبُوها دَبِرَةَ الظَّهْرِ، نَقِبَةَ الْخُفِّ، باقِيَةَ الْعارِ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ وَشَنارِ الْأَبَدِ، مَوْصُولَةً بِنارِ اللهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. فَبعَيْنِ اللهِ ما

تَفْعَلُونَ {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ، فَاعْمَلُوا إِنّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ))[39].

تفتتح السيدة الزهراء (عليها السلام) عتبة النهاية في خطبتها بأداة (ألا) التنبيهية التي تفيد التنبيه مع تحقق ما بعدها وتوكيده، فهي تنبههم بانها على يقين من تقاعسهم عن نصرة الحق، ومن ثم تعلل خطابها وتعزوه إلى أسباب نفسية تملكتها بعد رحيل أبيها (ص) وانقلاب القوم على أهل بيته وتحريف متبنيات الإسلام الحقيقية، وتقتبس الزهراء بعض الآيات القرآنية بطريقة تعزز فيها خطاب النهاية المفضي إلى التهويل والتقريع فتأتي بالآية المباشرة ((نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ))[40]، وكذلك قوله تعالى: ((وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ))[41] بأسلوب متداخل تصريحي.

وقد يكشف الخطاب التداخلي التصريحي عند الزهراء عن السبب الرئيس بالاستشهاد المباشر بكلام الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنها تخاطب جمهورا إسلاميا لتصبح الزهراء ناقلة للخطاب القرآني بتدبر وفهم عال، ومن ثمّ يكون هذا الخطاب أكثر تأثيرا، لان المتلقي يسمع كلام الله دون تغيير فيه، وهذا أقوى في الحجة.

ثم تنتقل الزهراء إلى التداخل القرآني التلميحي إذ تأتي ببعض الآيات القرآنية تلميحيا لتصب في دلالة التهويل والتقريع إلا انه يُظهر خصوصية الزهراء حين تنتقل في تعاملها مع الخطاب المتداخل من التصريح إلى التلميح والإشارة مع تغيير جزئي للنص المقتبس يتجلى في إدخال ضمير المخاطب كقولها:((وَأَنَا ابْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ))[42] وقولها: ((فَاعْمَلُوا إِنّا عامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ))[43]

في هذا التداخل التلميحي إشارة مهمة جدا وهي أنها بقية الله في الأرض المتممة لرسالته، ومن ذلك استدعاء تركيب (إنّا) الوارد في النص القرآني الذي قاله الله تعالى على لسان نبيه حين أمره أن لا يقول للكفار الذين لا يصدقون بتوحيد الله ولا يعترفون بنبوة نبيه ((وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ))[44]، ((والمكانة الطريقة... وهذا خرج مخرج التهديد، وقوله(إنّا عاملون) معناه إنّا عاملون على الإيمان الذي أمرنا الله به ودعانا إليه))[45]، فالزهراء تشير بلمحة خفية إلى أنها الامتداد الطبيعي للرسول الكريم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) ومن ثم لها الأحقية في اخذ مكانه ومخاطبة جمهور المسلمين المنحرف بخطاب قائم على التهويل والتقريع والوعيد.

ومما لاشك في أن خطاب الزهراء في هذه الخطبة لم يكن بمعزل عن الخطاب القرآني، فحتمية الأخذ من القران والتداخل معه، قائمة لدى الزهراء عليها السلام بوصفها سليلة البيت المحمدي، فنراها تغترف من القران الكريم بطريقة اشارية عندما تنتقل إلى التقريع المباشر للمخاطبين اذ تقول: ((مَعاشِرَ النّاسِ المُسْرِعَةِ إِلى قِيلِ الباطِلِ، المُغْضِيَةِ عَلى الفِعْلِ القَبيحِ الخاسِرِ أَفَلا تَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلوبٍهِم أَقْفالُها كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلوبِكُمْ ما أَسَأتُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ، فَأَخَذَ بِسَمْعِكُمْ وَأَبْصارِكُمْ، وَلَبِئْسَ ما تَأَوَّلْتُمْ، وَساءَ ما أَشَرْتُمْ، وشَرَّ ما مِنْهُ اعتَضْتُمْ، لَتَجِدَنَّ وَاللهِ مَحْمِلَهُ ثَقيلاً، وَغِبَّهُ وَبيلاً إِذا كُشِفَ لَكُمُ الغِطاءُ، وَبانَ ما وَراءَهُ الضَراءُ، وَبَدا لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ما لَمْ تَكونوا تَحْتَسِبونَ وَ خَسِرَ هُنالِكَ المُبْطِلونَ))[46].

فتأتي الزهراء بآيات تتساوق مع دلالة التقريع بطريقة حجاجية كقوله تعالى ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[47].

فهي تستفهم استفهاما يخرج إلى التقريع والتوبيخ بأسلوب يشبه الأسلوب القرآني وهذا دليل على ان الزهراء (عليها السلام) تراعي السياق القرآني عند استدعاء النص في خطابها، فالآية جاءت في سياق التوبيخ العام وهو سياق خطابها نفسه.

لقد تعاملت الزهراء مع النص القرآني تعاملا يجعله متداخلا ويجعل من الخطاب الحاضر والغائب خطابا واحدا متماسكا لأداء الوظيفة التوصيلية، وتحقيق الهدف من إنتاج الخطاب مثلما فعلت عندما اقتبست قوله تعالى ((فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ))[48]، إذ إنّ سياق الآية يركز على قيام الساعة، وهو ملائم لسياق خطاب الزهراء الرامي إلى التهويل والوعيد بالنهاية المحتومة المتحققة للذين انحرفوا وغيروا مسار الرسالة الإسلامية بعد رحيل الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) إلى الرفيق الأعلى.

الخاتمة

الحمد لله على ما أنعم والشكر له على ما ألهم، ونسأله أن يُحسن خواتيم أعمالنا، فإنّ الأعمال بخواتيمها كما قيل، وصلى الله على نبي الرحمة وعلى آله وصحبه وبعد؛

فقد آن الأوان لهذه الدراسة أن تلقي عصا الترحال وتُفضي إلى أهم النتائج التي تأتت لها من رحلتها القصيرة، التي يمكن إجمالها بالنقاط الآتي ذكرها:

1- اعتمدت هذه الدراسة على فكرة رئيسة شكلت نسيجها التكويني تشكيلا يعتمد على مبدأ المغايرة في الطرح إذ تنظر إلى مقولة (التناص) بوصفه منهجا تحليليا، وآلية قرائية لمقاربة الخطابات المتداخلة، وهو طرح يستهدف تحطيم النظرة الأحادية للتناص القائمة على كونه كونا نصيا متداخلا ومتشربا في نصوص أخرى في الآن نفسه.

2- إن خطاب الزهراء – سلام الله عليها –، لم يكن خطاباً إلتماسياً – كما صورته بعض الروايات – غاياته مادية، بل إنّ خطابها المتداخل مع روح الإسلام الحقيقي المتمثّل بالخطاب القرآني الذي أنتجته إشكالية فكرية ومذهبية، هو ثورة كلامية، وانتفاضة بلاغية، ضد الانحراف العَقَدي الذي انتهج نهجاً يصطدم مع القواعد الإسلامية التي أرسى دعائمها الرسول الكريم – صلى الله عليه وآله –، وهو في الحقيقة ثورة إصلاح كاملة للمنظومة الإسلامية التي حاول الآخر المنقلب تغيير مسارها.

3- ينهض بناء الخطاب المتداخل عند الزهراء–سلام الله عليها– على مرتكزات أساسية شكلت نسيجه الثيمي تشكيلا فكريًا عميقًا يتساوق مع مضامين السياق المنتج، أسهمت في صناعته بلاغة عالية، ودقة كبيرة في استدعاء الخطاب القرآني؛ فعلاقة الزهراء بالقرآن لم تكن علاقة اعتباطية بل هي علاقة طبيعية وحتمية

وضرورية؛ لانّ خطاب الزهراء لم يكن بمعزل عن الخطاب القرآني، فحتمية الأخذ من القران والتداخل معه، قائمة لدى الزهراء عليها السلام بوصفها سليلة البيت المحمدي.

4-توصلت الدراسة إلى أنّ الخطاب المتداخل القرآني المباشر قد احتل اغلب مفاصل الخطبة، ولقد حافظ هذا الخطاب القرآني على علويته الدلالية، ولقد تشربت خطاب الزهراء-سلام الله عليها- كثير من الخطابات القرآنية المتداخلة التي مارست وظائفها التنبيهية والتذكيرية، والحجاجية، والتهويل والوعيد والتقريع.

5- تشكّل خطاب الزهراء الحجاجي من بنية سطحية قائمة على تمظهرات لغوية لنص غائب ونص حاضر تشكل في سياق المقام والحدث وبنية عميقة مضمرة خلف السطح اللغوي والمظهر الخارجي وتمثل مركزية الخطاب المتداخل عندها اذ تضمر هذه البنية دلالات عميقة ابعد من ما تكشف عنه البنية السطحية دلالات تدور حول محاولة تقويض بنية خطاب منحرف وإعادة بناء خطاب بديل في ضوء حجم البراهين العقلية والنقلية.

6- إن الطرف المنقلب حاول أن يمنع الجزء (ارض فدك) عن الزهراء ليمتنع عنها الكل(حقّ استخلاف الرسول) بعد استشهاد الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه واله وسلم)، ومواصلة الرسالة المحمدية عبر ذرية الرسول(ص)، وأنجع دليل على ذلك في خطابها أنها تداخلت في خطابات قرآنية أخروية ولم تأت قضية الإرث إلا وسيلة للوصول إلى غاية وهي الكشف عن خطاب منحرف لا بد من تعديل مساره.

الهوامش:

(1) دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م: 89.

(2) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ضافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت ، ط1، 2004: 36، 37

(3) الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، أحمد المتوكل، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، منشورات الاختلاف – الجزائر، ط1، 2010م: 24.

(4) ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: 24.

(5) استراتيجية الخطاب المتداخل في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الاشتر رضي الله عنه(مقاربة في ضوء المنهج التناصي التحليلي) م. د. صباح حسن عبيد التميمي ، مجلة المبين، العدد الرابع، 2017م: 287، 288.

(6) النص القرآني من الجملة الى العالم، د. وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1997م: 17.

(7) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية- قراءة نقدية لنموذج معاصر-، د.عبد الله محمد الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1998،4 م: 324 - 325.

(8) النص والخطاب والإجراء، بو جراند ترجمة ، د. تمام حسان عالم الكتب ، القاهرة، ط1، 1998م: 6.

(9) إستراتيجية الخطاب المتداخل في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الاشتر رضي الله عنه(مقاربة في ضوء المنهج التناصي التحليلي): 292، 293.

(10) الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية- قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر:15.

(11) علم النّص،جوليا كرستيفيا،ترجمة:فريد الزاهي،مراجعة:عبدالجليل ناظم،دار توبقال للنشر،المغرب،ط1997،2 م:79

([12]) مدخل إلى التناص، نتالي غروس، ترجمة أ. د. عبد الحميد بورايو، دار نينوى، سورية، 2012م:11.

([13]) تحليل الخطاب الشعري(استراجية التناص) د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 1992م: 121.

([14]) ينظر: تأصيل النص "قراءة في ايدلوجيا التناص"، د. مشتاق عباس معن، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 2003م: 119.

([15]) إستراتيجية الخطاب المتداخل في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الاشتر رضي الله عنه(مقاربة في ضوء المنهج التناصي التحليلي): 294.

([16]) ينظر: التناص في شعر الرواد، احمد ناهم، دار الشؤون الثقافية بغداد، ط1، 2004م: 42.

([17]) ينظر:م. ن: 43.

([18]) ينظر: م. ن: 47، 48.

([19]) ينظر: م. ن: 94.

([20]) التوبة: الآية/ 128

([21]) الاحتجاج: 1/ 128.

([22]) التبيان في تفسير القران: مجلد، 5: الجزء 11/ 328 – 329.

([23]) المائدة/ الآية: 64.

([24]) الاحتجاج: 1/ 129 ،130.

([25]) الاحتجاج:1/ 130.

([26]) م.ن: 1/ 130.

([27]) لسان العرب، مادة(سمل)

([28]) م. ن: مادة (كظم)

([29]) م. ن: مادة: (خمل)

([30]) م. ن: مادة: (فنق)

([31]) ال عمران/ الآية: 85

([32]) الاحتجاج:1/ 130.

([33]) بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء عليها السلام، دكتورة فاطمة كريم رسن، مجلة الاستاذ، العدد، 204، المجلد الأول، 2013م: 56

([34]) الحجاج:1/ 131

([35]) الحجاج: 1/ 131 – 132.

([36]) التبيان: مج7 / 122.

([37]) التبيان: 7 / 105 – 106، و8/ 82.

([38]) ينظر: بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء عليها السلام، دكتورة فاطمة كريم رسن، مجلة الأستاذ، العدد، 204، المجلد الأول، 2013م: 54، 55

([39]) الاحتجاج:1/ 133، 134.

([40]) الهمزة: الآية/ 6

([41]) الشعراء: الآية/ 227
([42]) الاحتجاج:1/ 134
([43]) م.ن: 134
([44]) هود: الآية: 122
([45]) التبيان في تفسير القران: 88/6
([46]) الاحتجاج:1/ 136
([47]) محمد: الآية: 24
([48]) غافر: الآية/ 78

المصادر والمراجع:

القران الكريم.
1. الاحتجاج، لأبي منصور احمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي(ت620هـ)، منشورات الشريف الرضي، شريعت، ط1، 1380هـ-1960م.
2. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ضافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت، ط1، 2004م.
3. استراتيجية الخطاب المتداخل في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الاشتر رضي الله عنه(مقاربة في ضوء المنهج التناصي التحليلي) م. د. صباح حسن عبيد التميمي ، مجلة المبين، العدد الرابع، 2017م.
4. بنية الحجاج من منظور لسانيات الخطاب في خطبة الزهراء عليها السلام، دكتورة فاطمة كريم رسن، مجلة الأستاذ، العدد، 204، المجلد الأول، 2013م.
5. تأصيل النص "قراءة في ايدلوجيا التناص"، د. مشتاق عباس معن، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، الجمهورية اليمنية، 2003م.
6. التبيان في تفسير القران لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت460هـ)،دار الإحياء العربي، بيروت، لبنان.
7. تحليل الخطاب الشعري(استراجية التناص) د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 1992م.
8. التناص في شعر الرواد، احمد ناهم، دار الشؤون الثقافية بغداد، ط1، 2004م.
9. الخطاب وخصائص اللغة العربية – دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، أحمد المتوكل، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، منشورات الاختلاف – الجزائر، ط1، 2010م.
10. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية- قراءة نقدية لنموذج معاصر-، د.عبد الله محمد الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1998،4 م

11. دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000م

12. علم النّص، جوليا كرستيفيا، ترجمة:فريد الزاهي، مراجعة:عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2،1997م.

13. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت711هـ)، دار صادر، بيروت– لبنان، ط1.

14. مدخل إلى التناص، نتالي غروس، ترجمة أ. د. عبد الحميد بورايو، دار نينوى، سورية، 2012م

15. النص القرآني من الجملة إلى العالم، د. وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1997م.